

ذكر ا □ وشكره



يقول ا □ تعالى في كتابه العزيز:

(فَإِذْ كُذِّرُوا نَبِيَّ أَدَّ كُذِّرْ كُمْ ° وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ) (البقرة/ 152).

وهذه آية موجزة تشتمل على ثلاثة توجيهات عظيمة لو جعلها المؤمن نبراساً له في حياته لأضاءت له السبيل فسلكه آمناً مطمئناً دون أن يتعثر فيه:

فأول هذه التوجيهات قوله تعالى: (فَإِذْ كُذِّرُوا نَبِيَّ أَدَّ كُذِّرْ كُمْ °) وذكر ا □ تعالى على نوعين: أحدهما ذكره باللسان فقط، بينما القلب غافل عنه، والأعمال خارجة عن حدوده التي حدها، وقوانينه التي شرعها، وهذا ذكر لا فائدة فيه، ولا ثواب عليه، وإنّما هو وبال على صاحبه، من حيث أنّّه يقول ما لا يفعل ويتظاهر بأنّه تقيّ صالح ليجعل بذلك شعاراً على أعماله الفاسدة، فيدخل في نطاق قوله تعالى: (كَذِبُراً مَّقْتَتِلاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) (الصف/ 3)، والنوع الثاني ذكر ا □ بالقلب، أي أن يتمثّل المرء عظمة ا □ تعالى وجلاله فيطيعه ولا يخالف أمره، فإذا ترطّب اللسان مع ذلك الشعور القلبي بالذكر والتسبيح فذلك هو الذكر الحقّ، أو هو الصورة المثلّية للذكر الحقّ، ومن شأن صاحبه أن يستجيب ا □ تعالى في كلّ موقف، وأن يسأل نفسه: ماذا عليّ أن أفعل وماذا عليّ أن أترك لأكون مطيعاً ا □، ذاكراً له، وبذلك يؤدي واجبه نحو ا □، ونحو الناس، ونحو الوطن، ويكف عن مواقف الإثم والعصيان والتفريط، مستحيياً من ا □ حقّ الحياء أن يفقده حيث أمره، أو يراه حيث نهاه.

وقد أنبأنا الآية أنّ الذي يذكر ا □ يذكره ا □، ومعنى ذكر ا □ للعبد هو شموله برحمته ومعاونته

وتيسيره وتوفيقه، فإنَّ العبد فقير إلى ذلك مهما كانت قوَّته، ومهما كان ذكاؤه واستعداداه، ومهما كان اجتهاده، بل ربما اجتهد الإنسان بفعل ما يضرُّه وهو لا يدري.

وهكذا يكون الذكر الحقُّ ﷻ تعالى حصناً وأماناً لصاحبه كما وعد جلَّ شأنه.

التوجيه الثاني: قوله تعالى: (وَأَشْكُرُوا لِي).

وحقيقة الشكر: الثناء على المُحسن بما أولى من المعروف، وليس هو أيضاً مجرد قول يلاك باللسان، وإنَّما هو مقابلة الإحسان بالإحسان، ولما كان ﷻ تعالى هو المُحسن على الإطلاق، وهو المُنعم على عباده بجميع النعم فإنَّه يستحق شكرهم بمقتضى إحسانه وإنعامه، لكنَّه مع هذا الاستحقاق قضى رحمة منه بعباده وتفضلاً عليهم إنَّهم إذا شكروه شكرهم، وفي آية كريمة أخرى يقول جلاله: (لَتَذْكُرَنَّكُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) (إبراهيم/ 7) فطلب ﷻ تعالى لشكره إنَّما هو لفت للأنظار إلى نِعَمه، وفتح لأبواب من كرمه الإلهي لعباده (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنِّي أَزِيدُ شَكَرُهُ لِنَدْفِ سَهْ) (النمل/ 40).

وفي القرآن الكريم ما يدل على أنَّ شكر ﷻ إنَّما يتحقق بالعمل لا بمجرد القول، فالله تعالى يقول: (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) (سبأ/ 13)، فأمر بأن يكون شكرهم ﷻ عملاً، فكلَّ نِعمة أنعم ﷻ بها على الإنسان تستحق شكراً عملياً عليها فنِعمة المال تقتضي الجود به في مواطن الجود والإحسان، ونِعمة الصحة تقتضي بذل الطاقة والقوَّة فيما ينفع الناس، ونِعمة الحياة كذلك، ونِعمة العلم كذلك، ومَنْ صنَّ بشكر النِّعمة أو عصى ﷻ بها فهو متعرض لأن يجرَّده ﷻ منهما.

أمَّا التوجيه الثالث في هذه الآية، فهو قوله تعالى: (وَلَا تَكْفُرُونِ) وهو نهى للناس عن أن يكفروا بالله، أي يكفروا نِعمة ويستروها ويكذبوا بها، ومن كُفِّر النِّعمة أن تجحد فضل أصحاب الفضل عليك؛ فإنَّ رسول الله ﷺ يقول: "لا يشكر ﷻ مَن لا يشكر الناس" وفي هذا توجيه إلى أدب من آداب الاجتماع.

المصدر: كتاب القرآن (نظرة عصرية جديدة)